

التوزيع السكاني عند العرب

مصطفى العلواني

سهلا على الباحث في هذا الموضوع أن يختار المنهج الملائم الذي يعالج فيه هذا الجانب من المعرفة ضمن إطار لا يلحقه لوم أو تشريب • ولا سيما أننا ونحن أمام جمع من النصوص والأفكار سطعت في عقول أساطين الفكر العربي مبنوثة هنا وهناك وتحتاج الى يد صناع لتجلو ذلك وتنهجه ضمن إطار عملي سليم ومقبول • وهذه النصوص المبعثرة تتطلب عناية خاصة ومعالجة دقيقة وفهماً لروح النص ومغزاه مع مراعاة للفارق الزمني الذي يفصل بيننا وبينه •

وقد يكون النظر الى هذا الموضوع من خلال أحد الخيارين مسلكاً مناسباً أو منهجاً ملائماً حيث يقوم الأول على اثبات أسس هذا العلم ووضع الاسهامات العربية تحت ما تنتمي اليه ، في حين يقوم الآخر على اثبات البدايات الأولى من بدء اكتشاف هذه الظواهر والكتابة عنها وارجاعها الى أسبابها ثم الافادة منها في حقول المعرفة الأخرى • ولعل طبيعة الأفكار وتطورها عبر فترة زمنية طويلة يفضي بنا الى المضي مع الخيار الثاني واعتماده كنهج مقبول •

ويمكن من خلال هذا الخيار عرض الموضوع وفق الخطوات التالية :

- آ - البدايات وخطوات التطور
- ب - رصد عملية التوزيع السكاني •
- ج - تبلور هذا الجانب من المعرفة واستخدامه في فروع المعرفة الأخرى •

آ - البدايات وخطوات التطور :

ومما لا شك فيه أن العرب قد أسهموا في العلوم المختلفة اسهاماً كبيراً فصححوا ما كان خاطئاً وأتموا ما كان ناقصاً وقاموا بأعمال النقل والترجمة عن اليونان وغيرهم . كما عملوا على لم شتات المعرفة فضموا بعضها الى بعض وصبوها في أطر منهجية تشمل مختلف المقولات المتعلقة بفرع من فروع العلم ولم يقتصر دورهم على ذلك بل ابتكروا العلوم الجديدة وأتوا بمقولات حافظت على جدتها وأصالتها حتى الآن .

وإذا كان علم التوزيع السكاني قد تبلور في العصر الحديث على يد عدد من العلماء الأجانب فإن العرب قد ضربوا بسهم وافر فيه منذ مئات السنين وبنوا على مقولاته في استنباط بعض الآراء والتطبيقات ، ولم يدر في خلد العرب أن هذا الجانب من العلم سيكون مستقلاً بل كانوا يعدونه من الأبحاث الجغرافية التي تعرف اليها العرب عن طريق الترجمة وليس هذا بمستغرب عنهم فما زال هذا الجانب السكاني يعالج كموضوع جغرافي في المؤلفات الحديثة .

ورغم أن العرب عانوا من التوزع السكاني اثر تهدم سد مأرب وامتدوا الى البقاع المختلفة من الجزيرة العربية لم يقم منهم من يدرس هذه الظاهرة أو يشير اليها أو الى أثارها اشارة علمية ولكنهم تحدثوا عنها في أسماهم ورووها في أخبارهم وطبعوها في تراثهم ف ضربوا الأمثال وقالوا الأشعار وما المثل المعروف (تفرقوا أيدي سباً) الا دليل على ذلك وإشارة واضحة الى هذه الظاهرة .

وقد تجددت هذه الظاهرة بصورة أخرى وبأسباب مختلفة مع الفتوحات التي قامت من الجزيرة العربية حيث امتد معها العرب في الشرق والغرب وعلى مساحات واسعة من المعمورة فأناخوا في الأمكنة التي طاب لهم فيها المقام أو اقتضتها أحوال الفتوح أو اضطرتهم اليها البيئة الملائمة .

وتبرز أول اشارة الى أثر البيئة في توزيع السكان العرب عند اختيارهم للبيئات الملائمة لتمصير المدن ونفورهم من البيئات غير الملائمة التي لم يعتادوا عليها في صحرائهم أو في بلادهم الأصلية . فيروي ابن قتيبة الدينوري المتوفى سنة ٢٧٦ هـ نصاً في عيون الأخبار يبين فيه عدم سكنى العرب في المدائن وانتقالهم الى الكوفة واتخاذها دار اقامة لهم فيقول : « لما اجتوى البلد العرب وأذاهم الغبار والذباب » .

كتب عمر بن الخطاب الى سعد بن أبي وقاص أن العرب لا يصلحها الا ما يصلح الابل والشاء وقد أشار عليه من رأى العراق من وجوه العرب باللسان - وظهر الكوفة يقال له اللسان . فكتب الى سعد بذلك .

ولم تعالج المسائل السكانية أو يشر اليها بشكل علمي من حيث الربط بين الأثر والمؤثر وبيان العلل والأسباب الا في القرن الثالث الهجري حيث كانت أولى بداياتها على

يد العالم العربي الموسوعي الجاحظ الذي لم يقرر شيئاً الا بعد تجربته والتثبت من صحته واستنباط قوانينه من ظاهراته فاتخذ لمنهجه شعاراً « وهو ليس يشفيني الا التثبت » .

وقد ظهرت في كتاب الحيوان للجاحظ أولى الاشارات العلمية الى أثر البيئة في توزيع السكان وطباعهم وخصائصهم فنجد عدداً من النصوص المتعلقة بهذا الموضوع . فالجاحظ يؤيد ما يذهب اليه عن طريق تعليل الظواهر والصفات المعينة بأثر المناخ والبيئة على الانسان والحيوان والطباع اذ يقول « ولانترك أن يفسد الهواء في ناحية من النواحي فيفسد ماؤهم وتفسد تربتهم فيعمل ذلك في طباعهم على الأيام » .

كما عمل ذلك في طباع الزنج وطباع الصقالبة ، وقد رأينا العرب وكانوا أعراباً حين نزلوا خراسان كيف انسلخوا من جميع تلك المعاني . وترى طباع بلاد الترك كيف تطبع الابل والدواب وجميع ماشيتهم وترى جراد البقول والرياحين خضراً وديدانها خضراً أو نراها في غير ذلك .

ونرى القملة في رأس الشاب الأسود الشعر سوداء ونراها في رأس الشيخ الأبيض بيضاء واذا كانت في رأس الخضيب نراها حمراء فنصل خضابه صار فيها من بيض وحمرة . وقد نرى حرة بني سليم وما اشتملت عليه من انسان وسبع وبهيمة وطائر وحشرة كلها سوداء .

وفي هذا القرن ظهر عالم عربي اشتهر بالطب والحكمة هو أبو بكر محمد بن زكريا الرازي (٢٥١ - ٣١٩ هـ) تعرض الى أثر السكان في النواحي الاقتصادية وأظهر دور تعاون السكان وتأمين المعيشة حيث عقد فصلاً في كتابه « رسائل فلسفية في الطب الروحاني » تحت عنوان - في الاكتساب والاقتناء والانفاق - يبين فيه أن حسن العيش يأتي من التعاون وارتفاق الناس لبعضهم بعضاً وألح الماحة مفيدة الى أثر كثرة الناس في تقسيم العمل لتأمين عيشهم وحاجاتهم وقيام مجتمعهم وتطوره وبذلك سبق الاقتصادي المعروف آدم سميث في هذا المجال بمئات السنين فقال « وذلك أنه لما اجتمع ناس كثيرون متعاونون متعاضدون اقتسموا وجوه المساعي العائدة على جميعهم فسعى كل واحد منهم حتى حصلها وأكملها فصار لذلك كل واحد منهم خادماً ومخدوماً وساعياً ومسعياً له فطاب لكل بذلك العيشة وتم على الكل بذلك النعمة وان كان في ذلك بينهم بعد بعيد وتفاضل غير أنه ليس من أحد الا مخدوم مسعي له مكفي حوائجه . ومن المعروف أن الرازي كان أول العرب الذين حاولوا الاستفادة من خبراتهم ومعارفهم في الحياة الواقعية بتبيان أثر المناخ والموقع على الناحية الصحية . فعندما انتقل الى بغداد رأى السلطان العباسي « عضد الدولة » أن يستغل موهبته ونبوغه فاستشاره في بناء البيمارستان العضدي في بغداد في الموضع الذي يجب أن يبنى فيه ، فذهب الرازي الى نواح يطلب أصحابها هواء وأطهرها جواً فعلق قطعة من اللحم في جهات مختلفة فالموضع الذي بقيت فيه قطعة اللحم أطول مدة دون أن تفسد فذلك هو المكان الصحي الذي اختاره لبناء البيمارستان العضدي .

وقد أورد المسعودي وهو المؤرخ الكبير والجغرافي المشهور الذي توفي سنة ٣٤٦ هـ أن أشهر علماء العرب الذين تكلموا في معمور الأرض ومغمورها هم الكندي - مروان بن المنجم - محمد بن كثير الفرغاني وثابت بن محمد بن جابر البتاني ٠٠٠ وقد أرجع المسعودي في تاريخه « مروج الذهب » أسباب عدم سكنى المناطق الشمالية والجنوبية الى افراط الحرارة وافراط البرودة فقال : « المواضع التي لا تسكن عند هذه الطائفة عدمت السكنى لعلتين احدهما افراط الحرواحراق الشمس والعللة الأخرى ارتفاعها (أي الشمس) فاكتنف تلك الأرضين البرد واستولى عليها القر وافراط البرد ٠ وقد ذكر الدكتور عمر فروخ في كتابه تاريخ العلوم الانسانية عند العرب فقال : وفي كتاب التنبيه والاشراف للمسعودي أشياء من الجغرافيا الانسانية واشارة الى أحوال العمران ٠ وهذا فن من فنون المعرفة وضع أسسه ورتب قواعده فيما بعد عبد الرحمن بن خلدون ٠ كما يذكر المسعودي أثر المناخ من الحرارة والبرودة واختلاف منازل الناس من أقسام الأرض في ألوان البشر وفي النشاط الجسماني وفي الذكاء ٠

وقد جاء في رسائل « اخوان الصفا » في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري حول القسم المعمور من الأرض بأن القسم المكتشف من الأرض من نصف الكرة الشمالي ، هو المعمور فقط وأفاضوا في أحد نصوصهم في الكلام عن أثر المناخ وأنواع الأرض واختلاف التربة والموارد وانعكاساتها على الانسان والحيوان وطبائعها ويبدأ هذا النص بما يلي :

« اعلم يا أخي بأن تربة البلدان والمدن والقرى تختلف وأهويتها تتغير من جهات عدة فمنها كونها في ناحية الجنوب أو الشمال أو الشرق أو الغرب أو على رؤوس الجبال ٠٠ » ويحدد أيضاً اخوان الصفا مكان العمران وتواجد البشر على ظهر البسيطة فيشيرون الى القسم الواقع شمالي خط الاستواء فان القسم الجنوبي خراب لا عمار فيه فيقولون : « وهذا النصف المكتشف مما يلي خط الاستواء والنصف الآخر هو الربع المسكون مما يلي الشمال من خط الاستواء » ٠

ثم يذكر أن العمران ليس موزعاً بالتساوي على سطح هذا القسم المسكون فمن أجزائه ما يقع بين العمران والمدن والقرى ومنها ما هو في البراري والقفار ومنها ما هو في الجزائر والبحار ٠ وكذلك يعللون أسباب عدم قيام العمران وسكنى البشر في الأجزاء الباقية من الكرة الأرضية ويرجعون ذلك الى صعوبة التضاريس وقساوة المناخ حراً وبرداً وانتشار المياه المتلاطمة وقيام الجبال الشامخة فيقولون : فأما ثلاثة أرباعها الباقية فمنهم من سلوكها الجبال الشامخة والمسالك الوعرة والبحار والظلمة مثل ما في ناحية الشمال تحت مدار الجدي فان هناك برداً مفرطاً لأن ستة أشهر يكون الشتاء هناك ليلاً كله فيظلم الهواء ظلمة شديدة وتجمد المياه بشدة البرودة ويتلف الحيوان والنبات وفي مقابل هذا الوضع في ناحية الجنوب حيث مدار سهيل يكون نهاراً كله ستة أشهر صيفاً فيحمى الهواء ويصير ناراً سموماً ويحترق الحيوان والنبات من شدة الحر فلا يمكن السكنى ولا السلوك هناك وأما من ناحية المغرب فيمنع السلوك فيها البحر المتلاطم أمواجه وشدة ظلماته وأما

ناحية المشرق فيمنع السلوك هناك الجبال الشامخة ، فاذا تأملت وجدت الناس محصورين في الربع المسكون من الأرض » .

ولعل أولى التقسيمات العلمية للسكان حسب الحضرة والبدو واتصاف كل قسم بخصائص تختلف عن القسم الآخر قد وردت في كتابات أبي حيان التوحيدي المتوفى سنة ٤٠٤ للهجرة .

أما بالنسبة لأولى الكتابات الاقتصادية المتعلقة بأثر السكان في الأسعار فتعود على ما يبدو الى القاضي المعتزلي « أبي الحسن عبد الجبار بن أحمد الهمداني » المتوفى سنة ٤١٥ هـ فقد جاء في كتابه « المغني » تحت عنوان الكلام في الأسعار والرخص والغلاء « أن كثرة السكان التي عبر عنها بكثرة المحتاجين تؤدي الى الغلاء فيقول - أما الغلاء فقد بينا صفته وانما يضاف اليه متى قل الشيء في الأيدي مع الحاجة اليه أو كثرة المحتاجين اليه وان كان واسعاً » .

وفي مطلع القرن السادس الهجري ازدهرت العلوم الجغرافية على يد العرب حيث ترسخت أفكار الخوارزمي وتبلورت على يد جغرافي عربي كبير هو « الشريف الإدريسي » المتوفى سنة ٥٦٠ هـ الذي ألف كتاباً دعاه نزهة المشتاق في ارتياد الآفاق عالج فيه بعض القضايا الجغرافية المتعلقة بالسكان . وتبعه العالم الأندلسي ابن سعيد الفرناطي الذي قال بوجود تسعة أقاليم مضيئاً على الأقاليم السبعة اقليمياً واحداً جنوبي خط الاستواء لا يسكن تليه الأقاليم السبعة المعروفة واقليمياً ثامناً شمالي الاقليم السابع لا يسكن لشدة برده .

كانت هذه بعض الاماعات الفكرية التي أشارت بشكل علمي الى الآثار الجغرافية والبيئية والاقتصادية على بعض الظواهر السكانية وآثار الظواهر المختلفة فيها وقد شكلت هذه الآراء والاماعات أساساً علمياً هاماً لمن أتى فيما بعد من العلماء فافادوا منها وبنوا عليها أفكارهم وابتكاراتهم فيما حصلوا من علوم وأشادوا من مناهج .

ب - رصد عملية التوزع السكاني :

تقوم التعدادات برصد عملية التوزع السكاني ومعرفة حجم السكان . وقد اهتم العرب بعد السكان منذ البدايات الأولى للدولة العربية لسببين رئيسيين أحدهما معرفة أعداد العرب وأماكن تواجدهم ، حيث جاء ما يؤكد ذلك في حديث ماثور ، وثانيهما معرفة عدد سكان البلاد المفتوحة ومواردها ومساحة أراضيها وغلالها وخصائص سكانها .

كما وجد لدى العرب ما يشبه الآن بسجلات الاحصاء الحيوي « سجلات النفوس » فيذكر المؤرخون (زيدان وتاريخ التمدن الاسلامي) أن الخلفاء أولوا الاحصاء عناية خاصة اقتداء بالماثور فجعلوا على كل قبيلة من قبائل العرب رجلاً يصبح كل يوم فيدور على المجالس فيقول : هل ولد فيكم الليلة مولود وهل نزل بكم نازل (أي هل حصلت وفاة)

فيقال ولد لفلان غلام ولفلان جارية ويسميه وغياله واذا فرغ من ذلك عاد الى الديوان وأثبت الأسماء .

وقد قام العرب بالتعدادات مع بداية الفتوحات وكانوا يحددون تداوين الاحصاءات كل مدة وفي كل ولاية على حدة فقد ذكر أبو يوسف صاحب كتاب الخراج أنه « بعد معركة القادسية على زمن عمر بن الخطاب وضع عياض بن غنم على الجماجم فوضع على كل جمجمة مدين قمحاً وقسطين خلأ وجعلهم جميعاً طبقة واحدة » .

كما يذكر ابن الحكم القرشي في تاريخه « فتوح مصر والمغرب وأخبارها » أن العرب قاموا بعد السكان « فكان ما أحصى بمصر أعلاها وأسفلها من جميع القبط فيما أحصوا وكتبوا أكثر ٠٠٠ من كذا » .

كما يذكر البلاذري في فتوح البلدان أن المسلمين قد أحصوا في مصر فيقول « وأحصى المسلمون فألزم أهل مصر لكل رجل منهم جبة صوف وبرنساً أو عمامة وخفيه ٠٠ » وكتب عليهم كتاباً بذلك .

كما يذكر أبو يوسف في كتابه الخراج أنه لما ولي عبد الملك بن مروان بعث الضحاک ابن عبد الرحمن الأشعري على العراق فاستقل ما يؤخذ منهم فأحصى الجماجم وجعل الناس كلهم عمالاً بأيديهم وحسب ما يكسب العامل في سنته . وقد ذكر المقرئ في الخطط والآثار أن هشام ابن عبد الملك (سنة ١٠٧ هـ) أمر عبد الله بن الحجاب عامله على خراج مصر أن يمسحها فوجد أراضيها مما يركيه النيل ٣٠٠٠٠٠٠٠ فدان ولا يستغرب هذا الرقم لأنه كانت مساحة مصر آنذاك ١٨٧ مليون فدان كما ذكر المؤرخون .

ولم يقتصر العرب على القيام بالاحصاءات العامة السكانية والزراعية واحصاءات الدخل بل قاموا باحصاءات متخصصة كاحصاء الرهبان الذي تم في زمن عبدالعزيز بن مروان واحصاء المغنين الذي قام به جماعة من بغداد فقد أورد الدكتور زكي مبارك في كتابه النشر الفني عن كتاب حكاية أبي القاسم البغدادى ما نصه « ولعهدي بهذا الحديث سنة ست وثلاثماية وقد أحصيت أنا وجماعة بالكرخ أربعماية وستين جارية في الجانبين وعشر حرائر وخمس وسبعين من الصبيان البدور يجمعون من الحسن والخدمة والظرف ما يفوق حدود الوصف هذا سوى ما كنا لانظفر بهم ولا نصل اليهم لعزتهم وحرسهم ورقبائهم وسوى من كنا نسمعه ممن لا يتظاهر بالفناء والطرب الا اذا نشط في وقت أو ثمل في حال وخلع العذار في هوى حالفه وأضناه » .

ويذكر الجاحظ في كتاب الحيوان ما يفيد أن العرب قاموا بدراسة الظواهر السكانية عن طريق العينة فقاموا بدراسة أثر شرب الخمر في طول العمر فيذكر أن جماعة عدوا أربعين فتى من فتيان قریش وثقيف أعذار عام واحد فأحصوا عشرين من قریش وعشرين من ثقيف وتوخوا المتجاورين في المحلة والمتقاربين في الدور من الوفيرين على النبيذ والمقصورين على التنادم وأنهم أحصوا مثل ذلك العدد وأشباه ذلك في السن ممن لا يذوق

النبيذ ولا يعرف شراباً الا الماء فذكروا أنهم وجدوا بعد مرور دهر عامة من يشرب النبيذ حياً ومن لا يشرب قد مات عامتهم .

وخلاصة ما في الأمر فان العرب قد قاموا باحصاءات متعاقبة ودونوها في كل مرة وفي كل ولاية على حدة وأول تدوين في مصر مثلاً دونه عمرو بن العاص ثم دون عبدالعزيز ابن مروان (تولى اماره مصر ٦٥ - ٨٦ هـ) ، ثم دون قره بن شريك (سنة ٩٠ - ٩٦ هـ) ، ثم بشر بن صفوان سنة ١٠١ هـ .

وأخر أحصاء أحصوا به العرب في الأمصار كان في خلافة هشام بن عبد الملك سنة ١٠٥ - ١٢٧ هـ) ولكن هذه الاحصاءات لم تصل اليها فقد ضاعت في جملة ما ضاع من آثار بني أمية . ولما تولى بنو العباس أهملوا أمر العرب حتى اذا ببيع المعتصم بالله سنة ٢١٨ هـ بعث الى عماله في الأمصار أن يسقطوا من دواوينهم العرب ويقطعوا العطاء .

وتزودنا المصادر السريانية بمعلومات مفصلة عن احصاءات أهل الذمة وتبين أن العرب قاموا بأربعة تعدادات ومن أهم من عالجوا هذا الموضوع هو التلمحري (تلمحره - موضع في سورية على نهر البليخ) (الجزيرة) والتلمحري ت ٨٤٩ م ولده في تلمحره - بطريك السريان ٨١٨ - كتب تاريخاً كبيراً فقد معظمه تناول الفترة بين ٥٨٢ - ٨٤٢ هـ فاعتمده المؤرخون اللاحقون ولخصوه مراراً . وميخائيل السوري (ميخائيل الكبير ١١٢٦ - ١١٩٩) بطريك اليعاقبة له بالسريانية كتاب الحوليات في تاريخ الكنيسة والشرق وهو مرجع قيم .

ويستفاد مما تقدم أن العرب عرفوا التعداد بنوعيه التعداد السكاني والتعداد الزراعي واحصاءات الدخل ودونوا ذلك كما طبقوا نظام التسجيل الحيوي وقاموا بالاحصاءات المتخصصة واستخدموا أسلوب العينات في دراسة بعض الظواهر السكانية . ولو بقيت سجلات الاحصاء حتى الآن لوقفنا على صورة مفيدة لتوزيع السكان .

ج - تبلور هذا الجانب واستخدامه في فروع المعرفة الأخرى :

لعل ابن خلدون والمقريري وأحمد بن الدلجي هم من أشهر الذين اهتموا في الجانب السكاني واستخدموه في تأييد مقولاتهم وعلومهم حسب الأهمية والسبق الزمني . واذا كان التسلسل الزمني يقتضي أن نبدأ أولاً بابن خلدون يليه المقريري وصولاً لابن الدلجي فان اتساع جانب ابن خلدون واستخدامه لعلم التوزيع السكاني كمدخل ضروري ومنهجي لعلمه الجديد العمران ثم بيانه لأثر السكان في بعض الظواهر وأثر بعض الظواهر في السكان يحملنا على الوقوف وقفة أطول ويجعلنا نقدم المقريري والدلجي عليه في التسلسل :

١ - المقريري (٧٦٦ - ٨٤٥ هـ) :

تعتبر كتابات المقريري في الميدان السكاني مرحلة متطورة وتقترب اقتراباً ملحوظاً من كتابات ابن خلدون وقد يعود ذلك الى توفر المصادر التي أفاد منها الاثنان كما ترجع أيضاً

الى تأثير التلميذ بأستاذه فقد درس المقريري على ابن خلدون ولازمه أثناء وجوده في مصر .
ويبدأ المقريري في كتابه الاعتبار في ذكر الخطط والآثار بتحديد المنكشف من الأرض
وبيان أن المعمور من الأرض هو القسم الشمالي وان القسم الجنوبي خراب لا عمران فيه
حيث يقول : فأما المنكشف من الأرض مما يلي من خط الاستواء فهو خراب والنصف
الآخر الذي يلي الشمال من خط الاستواء فهو الربع العامر وهو المسكون من الأرض . وإذا
كان المقريري قد تبنى آراء الأقدمين في هذا الصدد الا أنه يبين أسباب تركيز السكان في
هذا القسم وأرجعه الى اعتدال الوسط ، وامتاز المقريري عن سبقه ببيان أماكن
التجمع السكاني وتحديد شكله ونمطه على نحو ما يتحدث عنه الجغرافيون المعاصرون
ولكن بشكل آخر وبتشبيه لا يخلو من طرافة وابتكار اذ يأخذ عنده التمرکز السكاني
شكل طائر رأسه الصين وجناحه الأيمن الهند والسند وجناحه الأيسر الخزر وصدره مكة
والعراق والشام وذنبه الغرب (أوروبا وشمال إفريقيا) ويتفق مع ما قرره
المعاصرون من حيث المناخ في النبات والحيوان . وقد ربط المقريري بين الوضع المناخي لكل
اقليم وبين عدد المدن الكبيرة التي يحتويها الاقليم حيث يستفاد مما كتب أن المدن
الكبيرة تتزايد حسب درجة اعتدال الاقليم . فالاقليم الأول يحوي ٥٠ مدينة والاقليم الثاني
٥٤ مدينة والاقليم الثالث ١٢٨ مدينة والاقليم الرابع ٢١٤ مدينة والاقليم الخامس
٢٠٠ مدينة والاقليم السادس ٩٠ مدينة والاقليم السابع ٢٢ مدينة . ولم يخف عن
المقريري أثر الوضع الاقتصادي في مختلف طبقات المجتمع فقد عالج في كتابه « اغاثة
الامة في كشف الفسمة » مستويات الأسعار وخاصة أسعار المواد الغذائية وأثر تقلباتها
على مختلف طبقات المجتمع كما وصف ما رآه علاجاً لهذه الأحوال الاقتصادية .

٢ - أحمد ابن الدلجي (٧٧٠ - ٨٣٨ هـ) :

اشتهر ابن الدلجي في معالجة القضايا الاجتماعية كالفقر والفقراء وبخاصة في كتابه
الفلاحة والفلكون وتعرض الى مسائل سكانية في غاية الأهمية . فقد أورد نصاً من حيث
القوة والضعف وهو بذلك يتفق مع بعض ما أورده المعاصرون الذين كتبوا عن أثر
الحرارة والبرودة في الانسان والحيوان والنبات وبعض الظواهر الطبيعية ثم تكلم عن اختلاف
الصفات ونوه بأن من كان من السكان يميل الى ناحية الجنوب فهم أتم ذكاء وفهماً ومن كان
يميل الى ناحية الشرق فهم أقوى وأشد ذكورة ومن كان يميل الى ناحية الغرب غلب عليهم
اللين والرزانة ومن الملاحظ أن ابن الدلجي قسم التجمعات السكانية حسب موقعها من
خط الاستواء ومدار السرطان ومجموعة بنات نعش حسب الترتيب التالي :

- المجموعة الأولى : وهم السودان وتسامت مساكنهم خط الاستواء .
- المجموعة الثانية : وهم أهل الهند واليمن وبعض أهل المغرب وفارس والصين وتقع
مساكنهم أقرب محاذاة الى مدار السرطان .
- المجموعة الثالثة : وهم أهل العراق والشام وخراسان وفارس والصين وتقع مساكنهم على
مدار السرطان الى محاذاة بنات نعش .
- المجموعة الرابعة : وهم الترك والصقالبة وتحاذي مساكنهم بنات نعش .

والشيء الهام في هذا التوزيع السكاني انه يقوم على معيار جغرافي فلكي ، ثم يسمى البلدان التي تقع في كل مجموعة بأسمائها المعروفة في ذلك العصر وهي تقترب اقتراباً وثيقاً الى ما يعتبره المعاصرون أماكن لازدهام السكاني .

وفي معرض مناقشة الحرف العلمية وكونها كمالات نفسية وطاعة من الطاعات يشير ابن الدلجي الى الآثار الاقتصادية للسكان حيث يبين أثرهم على قيام الصناعات وتطور المهارات أي تطور الأيدي العاملة واكتسابها المهارة الفائقة . فكلما كبرت المدن وازداد عدد سكانها كلما ازدادت صنائعها ونفقت أسواقها وذلك خلافاً للقرى والمدن الصغيرة التي لا يوجد فيها كما يوجد في المدن الكبيرة بسبب قلة عدد سكانها .

□ ابن خلدون (٧٣٢ - ٨٠٨ هـ) :

يتفق الباحثون العرب والأجانب أن ابن خلدون قد تعرض الى نواح وقضايا سكانية بيد أنهم لم يعطوها الأهمية الواسعة اذ أشاروا اليها عرضاً بين تضاعف كتاباتهم حينما حاولوا أن يبحثوا عنده علم الاجتماع وفلسفة التاريخ ولكنهم لم يسيروا الى أنه أول من استخدم علم السكان كمدخل أساسي وضروري في المنهج الذي اتبعه في كتابه علم العمران وبيان أثر السكان في القضايا الاجتماعية بعلمه الجديد العمران .

فقد اهتم ابن خلدون بتوزيع السكان على وجه البسيطة فتكلم عن الأرض وكرويتها وخطوط الطول والعرض فيها وتقسيمها الى سبعة أقاليم وبيان أي اقليم أعمر بالسكان وأخرى للسكن ودور السكان في اقتضاء الحاجات والتعاون على المعاش وقيام العمران وهو بذلك يلمح الى أهمية الموضوع ومدى مكانته كمدخل الى علمه الجديد العمران الذي عرفه « بأنه التنازل والتنازل في مصراوحه للأنس بالعشير واقتضاء الحاجات لما في طباعهم على المعاش » .

وعلى هذا فمتطلبات منهج علم العمران ونسق معالجاته اقتضت من ابن خلدون أن يكتب عن الأرض وشكلها وملاءمتها للعيش ثم توضيح كيف يتوزع عليها البشر وما هي دوافع وعوامل هذا التوزيع وأي الأقاليم يحظى بجذب الناس ، وأي الأقاليم لم يحظ بذلك ، كما أن اجتماع الناس ومساكنة بعضهم لبعض يتطلب منهم التعاون والتألف لاقتضاء الحاجات وتبادل المنافع حتى تقوم المجتمعات وينهض العمران ويتطور هذا العمران كلما تطورت علاقة المجتمعات البشرية مع ظواهر الحياة ومقوماتها من زراعة وحرف وصناعة وسلطة الى أن تتحقق وتتأثر الحضارة .

وهكذا فالمقدمة السكانية التي أوردها ابن خلدون ومهد بها الى علم العمران هي مقدمة متلازمة عضوياً بل هي جزء مدخلي الى علمه الجديد المبتكر وأساس من أسسه .

وعلى هذا يبدأ ابن خلدون أول ما يبدأ بتعريف علم العمران ثم ينتقل الى بحث القضايا السكانية ببيان الاجتماع الانساني وتوزيع السكان غير المتساوي على وجه المعمور مبيناً أن الغلاء والقفار أكثر من المناطق المعمورة وأن الأرض من جهة الشمال

أكثر عمراناً من جهة الجنوب فيقول « اعلم انه تبين في كتب الحكماء الناظرين في أحوال العالم أن شكل الأرض كروي وانها محفوفة بعنصر الماء كأنها عنبية طافية عليه فانحسر الماء عن بعض جوانبها لما أراد الله من تكوين الحيوانات فيها. وعمرانها بالنوع البشري الذي له الخلافة على سائرها . . . ثم ان هذا المنكشف من الأرض فيه القفار والخلاء أكثر من عمرانها والخالي من جهة الجنوب أكثر من جهة الشمال . . . وانما المعمور فيه أميل الى الجانب الشمالي على شكل مسطح كروي ينتهي من جهة الجنوب الى خط الاستواء ومن جهة الشمال الى خط كروي ينتهي وراء الجبال الفاصلة بينه وبين الماء » .

كما يبين ابن خلدون أن أنماط التجمع السكاني ليست واحدة في جميع الأقاليم السبعة بل تختلف عن بعضها بعضاً من أقليم الى آخر حيث يقل السكان في بعض الأقاليم ويكثر عددهم في بعضها الآخر .

أما بالنسبة الى العوامل المؤثرة في التوزيع السكاني ، فقد وصف المعاضرون أن التوزيع السكاني يتأثر ويتجدد نمطه بعوامل تتصف بالتعقيد والتغير وهذه العوامل هي العوامل الجغرافية (المناخ وشكل الأرض والتربة والعوامل الأخرى مع الترابط بين المناطق) .

والعوامل الاقتصادية والاجتماعية والديموغرافية ، وقد تعرض ابن خلدون الى هذه العوامل بشكل أو بآخر ووصل في بعضها الى حد لا بأس به من القرب من مقولات المعاصرين . فقد أشار في معرض بحثه حول العوامل الجغرافية الى طبيعتها المركبة والى أثرها في تركز السكان وتوزيعهم وعامل التضاريس وأثر التربة ، ففي الأقاليم التي يشتد فيها الحر يقل عدد السكان وفي الأقاليم التي يفرط فيها البرد يقل عددهم أيضاً في حين أنهم يكثرون في المناطق المعتدلة وتكثر معهم مظاهر العمران . كما أن التربة غير الصالحة لا تنبت زرعاً ولا عشباً ويبين أن اعتدال الطبيعة والتربة يؤديان الى الخصب والنماء وبالنتيجة الى قيام العمران وتكاثر السكان . ومن الملاحظ أن مدلول اعتدال الاقليم عند ابن خلدون لا يدل على اعتدال المناخ بل يشمل عدداً من التوافيق التي تدل على الطبيعة المركبة للعامل الجغرافي . وما سمي الاقليم معتدلاً عنده الا لأعتدال حرارته وتربته وتوفر معادنه وموافقة تضاريسه وقد يشذ أحياناً عنصر من العناصر .

وبعد أن تكلم ابن خلدون عن التوزيعات السكانية على مستوى العالم انتقل في بحثه حول طبيعة العمران الى تقسيم السكان الى قسمين بدو وحضر تمشياً مع المنهج الذي يقتضيه علمه الجديد العمران لأنه ينصب على دراسة العمران في المجتمعات القائمة سواء أكانت حضرية أم بدوية . وقد وضع معايير علمية في التفريق بين القسمين وهذه المعايير أقرب ما تكون الى المعايير المعاصرة ونستطيع أن نلتمس ذلك من نصه الذي يعرف فيه العمران فيقول : « العمران هو التساكن والتنازل في مصر أو حله للأشس بالعشير واقتضاء الحاجات لما في طباعهم من التعاون على المعاش » . . . ومن هذا العمران ما يكون بدوياً وهو الذي يكون بالضواحي والجبال والحلل المنتجة في القفار وأطراف الرمال ومنه ما يكون حضرياً وهو الذي في الأمصار والقرى والمدن .

واذا شرعنا في التماس المعيار الذي استند اليه المفكر العربي في تقسيمه للمجتمعات نجد أن المعيار الاقتصادي هو المعتمد اذ يقول « ان اختلاف الأجيال في أحوالهم انما هو باختلاف نحلته من المعاش ٠٠٠ فمنهم من يستعمل الفلح من الغراسة والزراعة ومنهم من ينتحل القيام على الحيوان من الغنم والبقروالمعز ٠٠٠ ويلى ذلك الاشارة الى الحضر ومعناه الحاضرون أهل الأمصار والبلدان ومن هؤلاء من ينتحل في معاشه الصنائع ومنهم من ينتحل التجارة وتكون مكاسبهم أغنى وأرقه ٠

ويستفاد من نصوص ابن خلدون أنه قام بتصنيف تدريجي للريف والحضر فقد قسم البدو الى الفلح وهم سكان القرى والجبال والشاوية ورعاة الابل ٠ اذن فالتدريج الريفى عنده هم الفلح والشاوية ورعاة الابل في البادية ٠

أما معيار التوزيع الحضري فكان على حظ مقدار المدينة من العمران فذكر أن المدن على أربعة أنواع فمنها الصغيرة ومنها المتوسطة ومنها الكبيرة ومنها العملاقة التي تجاوز الحد ويقابلها في التعبير عنده زخريجرالعمران واستبحر العمران وخرج عن الحد العمران وقد اعترف الرحالة الأجانب بقيام مثل هذه المدن (٤٠١) ٠

ويعتبر ابن خلدون من أبرز المفكرين الذين بينوا أثر السكان في النواحي الاقتصادية والاجتماعية فقال « ان تفاضل الأمصار والمدن في كثرة الرزق لأهلها انما هو في تفاضل عمرانها ٠ ولم يخف عليه قانون العرض والطلب وأثر ذلك في الأسعار فعمل على بيان أسباب غلاء الصنائع والأعمال في المدن وقال بأن ذلك يعود الى استبحار العمران ثم اذا كان القطر مستبحراً موفور العمران كثير حاجات الترف توفرت حينئذ الدواعي على طلب تلك المرافق والاستكثار منها كل بحسب حاله فيقصر الموجود منها عن الحاجات قصوراً بالغاً ويكثر المستامون لها وهي قليلة في نفسها فيزدحم أهل الأغراض ويئذل أهل الرفه والترف أثمانها بأسراف في الغلاء لحاجتهم اليها أكثر من غيرهم فيقع فيها الغلاء كما تراه (ص ٣٦٣) ٠

ويفرق ابن خلدون في هذا الصدد بين الحاجي والكمالي فعندما يكثر عدد السكان يقل سعر الحاجات الضرورية بسبب حاجة الناس الملحة اليها واجتهادهم في تأمينها وعلى هذا يظل عرض هذا النوع من السلع مرتاً والمقابل فان أسعار الحاجات الكمالية ترتفع بسبب كثرة الطلب عليه ومحدودية العرض ٠ أما اذا قل عدد السكان وتراجع العمران فان الأمر سيكون معكوساً فيقول « اعلم أن الأسواق تشتمل على حاجيات الناس فمنها الضروري وهي الأقوات ومنها الحاجي والكمالي مثل الفواكه والماعون والمراكب ٠٠٠ فاذا استبحر العمران وكثر ساكنه رخصت أسعار الضروري من القوت وما في معناه وعلت أسعار الكمالي واذا قل المصر وضعف عمرانه كان الأمر بالعكس » (٣٦٣) ٠

واذا كانت هذه الحالة هي الوضع الطبيعي عنده الا أنه يختلف الأمر عندما يدخل على هذا الوضع أمر غير طبيعي كوقوع الآفات السماوية وقيام الاحتكار فعندها يقل العرض وترتفع الأسعار ٠ وبهذا اشارة هامة من ابن خلدون الى تعطل القوانين الطبيعية التي تحكم الأسواق بسبب تدخل عارض غير طبيعي كالاحتكار وغيره ٠